جهود الملوك العلويين لنشر التعليم بالمغرب

الاستاذ محمد حدو أمزيان
عميد كلية أصول الدين
ورئيس المجلس العلمي بتطوان

مولاى محمد بن عبد الله يصلح منهاج الدراسة فى جامعة القرويين

ومولاى عبد الرحمن يضع أساس فكرة التعليم الالزامى .

غدا المغرب مركزا من مراكز النهضة العلمية العربية ، منذ ان اصبحت له دولة مستقلة عن الخلافة العباسية . كان لها جميع مقومات الدولة المستقلة ، وفى مقدمتها نظام تعليمى ثابت الدعائم له منهج ونظام يسعيان الى تحقيق غاية سامية . الا وهى المحافظة على هذا الدين الذى جاءه من المشرق ، فتلقاه بالروح والجسد ، وانتصب للمحافظة عليه ، ونشره فى هذا الجزء من المعمور . ولم يكن ينافسه فى مركزه هذا غير الاندلس وتونس والعراق والحجاز ، ولم تكن هذه المراكز فى الواقع سوى مراحل يكمل بعضها بعضا فى التعليم الاسلامى والنهضة العربية فى العصور الوسطى . بل كانت فاس تضاهى فى بعض عصورها بغداد المشرق ، وقرطبة الاندلس ، فى العلم والحضارة ، كما تشهد بذلك النصوص التاريخية الثابتة .

وهكذا نجد ان المغرب ورث نظاما تعليميا ومنهجا مقررا ، اسسه بنفسه ، وصممه على شكله وطبيعته يحمل مميزاته ، ويتجاوب مع حاجياته ومتطلبات حياته . مراحل التعليم الثلاث كلها متمثلة فيه . مساجد القرى وكتاتيب المدن تمثل المرحلة الابتدائية ، اذ يتخرج منها التلميذ وقد اتقن القراءة والكتابة وقواعد الدين ومبادىء اللغة العربية عن طريق حفظ القرآن . فى حين تتمثل المرحلة الثانوية فى المراكز التى كانت تنتشر فى اهم نواحى البادية وسائر المدن ، حيث يجتمع الطلاب من القرى الصغيرة ويقصدون الناحية او المدينة التى ينتصب فيها للتدريس علماء اشتهروا بالكفاءة والدراية ، فيقضى الطالب سنوات من عمره فى الاستماع لالقاء الشيخ بلسان عربى اصيل ، فى مختلف العلوم الشرعية واللغوية وما هو معروف فى بيئته من فنون المعرفة . واخيرا ينتقل ، بعد ان يأنس من نفسه قدرة وكفاءة يشهد له بها شيخه ، الى المرحلة العالية الى جامعة القرويين بفاس . حيث يكمل دراسته فى العلوم المعروفة لوقته كما يأتى ذكره . وبانتهائه من هذه المرحلة يحصل على اجازة الجامعة ، ويرجع الى بلده لينتصب للتدريس او للعدلية والقضاء ، او لاحدى الوظائف السياسية ، حسب ميوله وظروفه .

اما منهج التعليم بالمغرب فكان يمتاز عن المشرق والاندلس بميزتين :

1) الاولى فى المرحلة الابتدائية ، حيث كان التلميذ المغربى يقتصر على القرآن فى صغره ، ولا يخلطه بشىء من الادب وغير ذلك ، مما يفوت

عليه فرصة الفهم المسبق ، ولذلك اثره السيىء فى تكوين عقلية التلميذ فكانت معارفه اللغوية والدينية نفسها قاصرة .

2) والثانية فى المرحلة العالية ، حيث كان المغاربة يميلون الى اختيار العلوم النافعة ، والكتب السهلة الميسرة ، فكان الاهتمام بالعلوم الفلسفية محصورا فى نخبة من الخاصة ، كما ضربوا صفحا عن الكتب المعتدة ، والمختصرات المتأخرة التى اشتهر بها علماء العجم . ولذلك نلاحظ السهولة واليسر فى الكتب المقررة والمؤلفة غالبا بايد مغربية .

اقول : اصبح للمغرب هذا النظام التعليمى الثابت ، بفضل ملوك عظام من ملوك المغرب الاماجد . فبفضل رعايتهم للعلم ورجاله وطلابه ومعاهده وعواصمه على مدى عصور التاريخ المغربى ، تم هذا البنان الشامخ والاساس الراسخ والبيت العامر ، وحق عليه القول المأثور « بيت العلم لن يخرب » ولذلك بقى المغرب ــ امة ودولة ــ خالدا حيا ، رغم احداث الزمان وعوادى الدهر . لم يمسخه استعمار ، ولم يسلخه احتلال ، ولم ولن يقضى على عروبته اى كان مهما كان .

وليس من المبالغة اذا قلنا : ان الاسلام قد انتشر نوره بفضل المغرب وقاعدته العلمية ، ونظامه الثقافى فعم ارجاء الشمال الغربى للقارة الافريقية . فكانت فاس قبلة هذه الشعوب فى نيل الثقافة الاسلامية ، كما كانت جامعة الازهر والزيتونة من الجهة المقابلة . وبسبب هذه المراكز الحصينة صمد الاسلام امام التيارات الاوربية فى مختلف العصور . اذ كانت مياه البحر الموسط تذيب كل اسلحة التخريب التى تنطلق للنيل من الاسلام وحضارته .

غير ان هذا النظام التعليمى الذى ورثه المغرب عن السلف ، لم يكن ليحى ويستمر مفعوله مدى الدهر ، لو لم يكن للمتاخرين من ملوك المغرب العظام ، وخاصة ملوك هذه الدولة الشريفة ، والدوحة المنيفة ، والاسرة العلوية الكريمة ، التى انتصبت لقيادة المغرب ، والمحافظة على تراثه ومركزه ، والدفاع عنه ضد النوائب ، والاخذ بيده عند الازمات . اقول لو لم يكن لهؤلاء الملوك الائمة يد تعمل باستمرار على اصلاح ما فسد ، وترميم ما تلاشى ، وتفقد ما لحقه الاهمال والنسيان .

فتارة نجدهم يصدرون المراسيم ، لاصلاح المناهج الدراسية ، وتجديد خطة العمل ، وتارة نراهم ينشرون على الامة تعليمات يحضون فيها على العناية بالعلم والتعليم فى المدن والقرى ، ويطلبون فيها من العمال أن يلزموا الاهالى بتعليم اطفالهم ، وما الى ذلك من التعليمات السامية ، التى يحرصون فيها على وجوب الاخذ بها والتقيد بما فيها .

فهذا مولاى محمد بن عبد الله الملك العالم الناهض ، يصدر مرسوما فى شان تنظيم مناهج الدراسة فى جامعة القرويين ، لاجل توجيه التعليم العالى وجهة اسلامية سلفية متفتحة ، القصد منها تيسير التعليم مع التفنن فيه ، وتفضيل كتب المتقدمين على المتأخرين ، والاقتصار من العلوم العقلية والفلسفية على ما كان منها نافعا فى الميدان العملى ، لا ما كان منها مناقضا للدين والشريعة ، مثل بعض الكتب الصوفية المغالية فى آرائها .

ولكنه ترك للناس حرية فى قراءة ما شاؤا من ذلك فى غير المساجد التى هى معاهد للتعليم الرسمى . شىء عظيم ان يقع هذا فى ذلك العصر ، وفى المغرب الاقصى ، مع ان الفلسفة لم تنل اكثر من هذا الحظ من الحرية فى العصر الذهبى بالمشرق . واما بالنسبة للعلوم الاسلامية ، فتعليماته ازاءها مدهشة حقا ، فالتوحيد لا ينبغى ان يضيع فيه العمر بل يدرس بمثل رسالة ابن ابى زيد فهى كافية لجميع المسلمين . اما الادب والشعر فضروريان لفهم كتاب الله وحديث رسوله (ص) . والفقه يجب أن يدرس بمثل المدونة ، والبيان والتحصيل ، ومقدمة ابن رشد ، والجواهر لابن شاس ، ورسالة ابن ابى زيد ، وغير ذلك من كتب الاقدمين . وكذلك كتب الحديث والسيرة والنحو والصرف والبيان يجب الاعتماد فيها على كتب الاقدمين ، لان اسلوب تلك الكتب المبسط الخالى من التعقيد هو الملائم للمتعلم

حقا . وتلك فكرة سابقة لزمانها .

وهذا منشور آخر لمولاى محمد بن عبد الله ، يفرقه على جميع عمال المملكة . ومما جاء فيه ، بعد وصف حالة الشعب من حيث هبوط مستوى التعليم ، قوله : « وذلك من تفريط العمال وقلة اعتنائهم بالدين ، والمهدة عليهم فى ذلك ، لانهم ينبغى ان تكون لهم الغبطة فى العلم والعلماء ، وتقريب اهل الخير والدين ، والاقتداء بالاولياء والصالحين ، واعانة النجباء من قبيلتهم على طلب العلم من محله ، واخذه من اهله . ففى الحديث طلب العلم فريضة ». والمنشور طويل ، وقد جاء فى ختامه « فاجعلوا هذا الكتاب نصب اعينكم ، وتدبروا ما فيه ببصيرة نافذة ، وعقول حاضرة ، لتعملوا بمقتضاه ، والله يوفقكم لما يحبه ويرضاه والسلام » .

اما مولاى عبد الرحمن فقد اصدر منشورا الى عماله جاء فيه : « فيجب على كل عاقل تحرى لدينه واراد السلامة لنفسه ، ان يتفقد احوال ايالته ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤل عن رعيته ، فيلزم كل دوار ومدشر مشارطة (توظيف) طالب علم ، يرجعون اليه فى امر دينهم ، وتعليم صبيانهم وجهالهم ، ويقوم بالاذان والصلوات الخمس . ومن لم يفعل زجره وعاقبه » . وهذا لعمرى اول تشريع مغربى فى انشاء التعليم الالزامى بالمعنى الكامل . اذ اوجبه على كل دوار ومدشر وامر بالزجر والعقاب لمن لم ينفذه ، وليس فى نظام التعليم الالزامى اكثر من ذلك .

والموضوع لا يتسع له مقال ولنكتف بهذا القدر ورحم الله هؤلاء الملوك وجعل وارث سرهم مولانا الحسن الثانى مجددا للامة وعلما يسترشد به الخلف وادام لهذه الامة المغربية عزتها ووحدتها كى تكون كما كانت دائما حصنا للاسلام فى هذا الجانب الاهم من عالم العروبة والاسلام .

من صحيح الامام البخارى

روى ابو هريرة رضى الله عنه :

فى كتاب الرقاق ـ فى باب الرجاء مع الخوف :

قول النبى صلى الله عليه وسلم

لو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ـ ولو يعلم المومن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار .